

«نحيب البحيرة» في أعماقنا وعلى الأرض

ماجد صالح السامرائي ❖

عزيزي عبد الرحمن^(١)

وأنا أقرأ عملك الجديد هذا أجذك كمن يؤلف قصصاً أقرب إلى القصص المتخيلة منها إلى الواقع لفداحة وقائعها، محاولاً استعادة تمرّد شبابك الأول. إنك تستعيد، هنا، أطرافاً من طفولتك التي تجدها جميلة. كما تستعيد شبابك الثاني الذي كان، كشبابنا جميعاً، شاباً مدمراً، تاركاً كل شيء للعراء، ثم تعمد إلى تعرية ذاتك وذواتنا معك مع ما لحق بحياتنا من دمار. ولئن حاولت أن تبدو صافياً مرحاً، فأنت لم تستطع إخفاء الجراح التي كشفت عنها صورٌ ومواقفٌ لم تستطع انتزاعها من عقلك.

أدرك أنّ الخيبة رفيقة جيلنا؛ والسبب الأساس هو أنّ حلمنا كان أكبر من واقعنا، بل قل إنّ واقعنا كان يتراجع بينما كنا نريد أن نتقدم به وبأنفسنا... نحن الذين اقتبسنا جوهر الحقيقة من أنفسنا. ولذلك عكسنا ذواتنا في ما نكتب، وكانت هذه الذوات على جانبٍ غير يسيرٍ من خصب التصوّر الشعريّ.

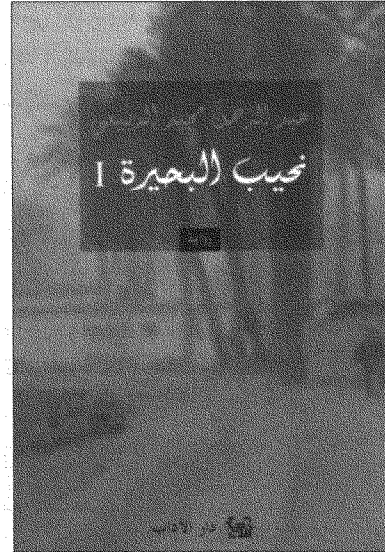
لقد قرأنا قصيدة حيواننا قراءةً منفصلةً بأزمة العصر، وكتبنا قصيدةً لم تبحث عن التوازي مع ما قرأنا قدر سعيها إلى الخروج عليه. وقرأنا القصة ففسرنا دلالاتها بما عشناه، ويوم كتب بعضنا «قصته» جعل منها جوهرًا آخر للحقيقة. أما حين قرأنا الرواية فبقدر ما فتننا بعض شخصياتها عمدنا إلى

إحالتها على أحلامنا والواقع. وقد وجدنا بين هذه الشخصيات مَنْ يتقدم على أرض الواقع بتوجس أو يتراجع منكسراً. إلّا أننا كنا نجتمع إلى هؤلاء لنقول لهم من باب العزاء: «لأمثالكم تشرق الشمس». وإذا بنا، في النهاية، نتبعثر حيث تبعثروا قبلاً، ولم يبق من أحلامنا تلك سوى الذكريات التي تكتب أنت اليوم طرفاً منها.

لماذا تكتب عن الماضي؟ أمن أجل المصالحة معه؟ أم لتعمق هوة الخلاف كي تقطع على نفسك طريق العودة إليه؟ ولكني لا أكتك القول إنّني وجدتُ هذا الماضي الذي كتبت عنه ماضيّن: واحداً نحن إليه؛ وآخر تشكوه لفداحة خسائرك فيه حتى بت لا تجد أمامك إلّا الانسحاب منه. ومع ذلك وجدتُ في لحظات العبور الصعب تهتف مع المتنبّي: «وأنتي شئت يا طرقي فكوني...».

هذا كلّه يعيدني إلى البدايات. فأنت يوم بدأت الكتابة، بدأتها بلغة الحداثة، بلغة الشعر والتأثر الشعريّ. وكنا، نحن الجيل، مستلبين للشعر والشعريّ. وأجدني اليوم أفسر تلك اللغة بأنها كانت «هروباً آخر»، ولكن من «لغة الواقع» لا من الواقع نفسه. في تلك السنوات، سنوات الستينيات، أصدر السوري هاني الراهب روايته الأولى، المهزومون. كانت الهزيمة تتكرس إحساساً، ثم غدت واقعاً. ويوم التقيتُك، أول مرة، ربيع العام ١٩٦٤، وكنتُ قرأتُ لك كتابات متناثرة، كحياتك التي عرفتها من بعد، وجدتُك كمن يحاول الانتصار على هزيمته بالكتابة. إلّا أن الهزيمة تغلبت عليك يوم تسلّلت إلى عمق ما تكتب.

أذكر يومها: كان كتاب آخر مهم قد صدر (١٩٦٣)، هو العرب وتجربة المأساة لصديقي إسماعيل. وقد تناول تجربة المأساة من الجاهلية إلى عصرنا، الذي تسود فيه، بحسب إسماعيل، أوهام أربعة: وهم الحقيقة، وهم الاستقرار، وهم الفردية، وهم الذاتية. وبقدر ما وجدتُ هذا الكتاب يحفزني إلى تجاوز «أوهامي»، وجدته يشلني لأنه وضعني وجهاً لوجه أمام ما كنتُ أعتقد أنه حقيقة ولم يكن سوى وهم. أذكر هذا لأقول إنّ المشترك بيننا، جيلاً وأصدقاء، كان يستوي عند عذابات الروح واعتمالات الفكر هذه. ولم يكن ما فعلناه، حتى تجارب الحب الخائبة، أكثر من هربٍ من مواجهة «المصير». وقد اكتشفنا الكثير من الكذب. ومررنا بفتراتٍ أخرى كان همنا الأكبر فيها



❖ كاتب من العراق.

١ - الرسالة - المقال موجهة الى الروائي عبد الرحمن مجيد الربيعي حول كتابه، نحيب البحيرة (بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٩).

المحافظة على يقيننا الذاتي. إلا أننا وجدنا أنفسنا أمام واقع مشطور إلى شطرين: فواقعٌ تعلنه اللغة، وآخرٌ كان حتمياً، وكلاهما غير مكتمل.

لكنَّ الأسوأ من هذا كله هو ما أعقب الحقبة التي ينقل عملك هذا طرفاً منها. إنها حقبة الفقر المرعب. صرنا نسال عن «الغاية الأخيرة» من عمليات التجويع التي طاولتنا بشراسة، متى تنتهي؟ ونتساءل: أيمن من بعد كل الذي عشناه أن تبدأ حياةً جديدةً للعراقيين؟ لقد أصبحنا خارج التاريخ، وجرى النظر إلينا على أننا كذلك. وأحد الذين تحدثت عنهم في عملك هذا عاش، من بعد مغادرتك البلد، ثمانية أعوام ببذلةٍ شتويةٍ واحدة. وكان حين يسأله أحد عن دواعي «تمسكه» بها يقول مازحاً، وهو يحاول إخفاء الجرح، بأن فيها صفتين محبتين: الفريدة والقديم. ويومٌ وجدها قد بليت ولم تنته سنوات الحصار، لم يجد «للتعويض» منها إلا «سوق البالات». ولم يكن هو الوحيد الذي فعل ذلك!

كنت تخشى على كتبك، كما تقول، أن تباع من بعدك في «سوق السراي». ربما بلغك أن هذه السوق لم تعد تستوعب ما كان يخرج من بيوت المثقفين العراقيين من كتب تباع لتغطية متطلبات الحياة. وقد فتح شارع المتنبي، المجاور للسراي، صفتيه لاستقبال الكتب التي كان أصحابها يخرجون بها مع دموعهم وأهاتهم وكانهم يودعون عزيزاً رحل. كنت أترقب صباح كل جمعة، أن أرى أحدهم وقد دعا أصحابه إلى أن يحملوا معه نعشاً مليئاً بالكتب، فيواري «الجنائز» بين آلاف الكتب التي تكون قد سبقته إلى الشارع. لكنَّ أحداً لم يفعل ذلك «خوف الفضيحة»، رغم أن أسماء كثيرة أصبحت معروفة بسبب وجودها مدونة على الكتب المبيعة. إنني أكلّمك عن «سنوات الحصار» التي لم تكنو بنيرانها كما اكتوينا، يوم لم يعد لوجودنا أي بعد إنساني أو تاريخي.

وما كانت محصلة هذا كله؟ كانت الغزو، والاحتلال، والموت المضاعف آلاف المرات، وخيانات لا تُحصى، وخونة يتباهون بخياناتهم لبلدهم وناسه، وشعباً مشرداً. فإلى أين تريد للثقافة والمثقف أن ينتهيا في واقع كهذا؟

إنَّ «نحيب البحيرة» أصبح في واقع كهذا صراخاً وعويلًا.. ولا من يسمع! ولو أتيح لك أن تعود اليوم إلى بلدك، فقد تخرج بجزء آخر من الكتاب، وستسمي الجنون الأخير. قد تسألني: ولماذا لم يكتب زملاؤنا شيئاً من هذا؟ فأجيبك: البعض كتب ونشر! والبعض كتب ولم ينشر بعد؛ وبعض ثالث التهمته

«المؤسسات – الواجهات» وأغرته بأموالها، فلم يعد يرى إلا الجانب الذي تريد منه أن لا يرى سواه. بل إن بعضهم راح يصرح بأنه لم يجد «الحرية» من قبل لتنفيذ «مشروعاته» في الكتابة، وها هو يريد اليوم أن يبدأ «معضاً».. ومنهم الكاتبة التي وجدت نفسها، كما قالت لإحدى إذاعات الاحتلال، تعيش الحرية لأول مرة بعد أن افتقدتها أربعين عاماً (أي بين ١٩٦٣ و٢٠٠٣ عام الاحتلال)، وهي اليسارية التي باعت اليسار في لحظة انكساره، وعاشت سنواتها الأخرى في ظل المؤسسة الثقافية ورعايتها!

اليوم، في هذا البلد، دُمّر التاريخ والواقع تدميرًا كاملاً. والغزاة الذين فعلوا هذا لهم شكل البشر، ولكنهم مفرغون من كل روح إنساني. أما من جاؤوا معهم على متن دباباتهم، فهم غرباء عن البلد، حيويهم في غرائزهم، وقد فجرُوا هذه الغرائز دماراً وإحراقاً وسلباً ونهباً، وبينهم كتاب ارتضوا أن يكونوا «أدلاء» للغازي المحتل... وعلى ماذا؟ على التدمير والتخريب.



قد يقول قارئ لا يعرف فداحة الحقبة التي تحدثت عنها إنك في كتابك هذا «تلهو» على هواك. وهذه نظرة سطحية إلى العمل؛ فالمسألة أكثر عمقاً لأنك تدعونا إلى إعادة قراءة ما حصل. وقد يجد قارئ في ما كتبت ضرباً من الانفجار الذاتي، وهو كذلك؛ فما أتينا به ليس قصصاً متخيلة بل وقائع. ليس ما هو خفي في ما يستند إليه عملك؛ كل شيء فيه مكشوف، ومعرض بطريقة دالة، إشاراتها الأسماء التي لم يستطع التحوير أن يخفيها، وكذلك الأماكن والحالات. وقد جعلت الانتباه يتوجه إليك أولاً، على الرغم من أنك في عالمك الشخصي هذا قد منحت الآخرين «حقّ الدخول» إليه، فدخلوه معك، وأنت ترجو منهم «المشاركة» التي تساعدك في دعم المعاني التي يهكم تأكيدها.

وأنت بوصفك «بطلاً» لهذا العمل لم تتمكن من تحرير نفسك من الصراعات التي سادت تلك الحقبة وما بعدها، ولكنك لم تقع في أوهامها. بل قد يجدك القارئ، كما وجدتكم، حريصاً على التعريف بنفسك بما هو أقوى من المميزات الذاتية وأكبر أثراً. فأنت «الشاعر» الذي لم يتحرر من رغباته الشخصية، إلا أنه عرف كيف يعيش تلك الرغبات وإن بطيش أحياناً!

أيمن القول إنَّ عودتك إلى الحياة الأولى جاءت سعياً إلى إنقاذ الطفولة في داخلك؟ أم هو بعض من عذابات الضمير جراء ما ألحقت بتلك الطفولة من شقاء يوم كبرت؟ أجد كلماتك في هذا

حين تجد «مدينة الحلم» تتهاوى بحلمك، وتصبح هي نفسها بلا معنى؟ هل تحتفي بإحضر لم يعد لك أو منك؟ أم تنتظر مستقبلاً لا تعرف عنه شيئاً؟ أم تعود إلى الماضي وأنت الذي أدركت أن للتاريخ معنى ودلالة، فماذا بقي لك من التاريخ؟

كان صديقك، العزيزي، على حق إذاً في سخريته المريرة. لم تكن رؤيته ساذجة أو تخلو من الاستشراق، بل يبدو أنه كان يأخذ الأمور بنتائجها، ويدرك واقعنا وقد جرى اختزال التاريخ فيه على مرأى ومسمع منه، وأريد له أن يكون شاهداً على ما يحدث - وهنا المفارقة القاتلة، وربما هي التي قتلت يوم راح يحصي الخسائر في ليلة غربة مبهمه!

وشياً فشيئاً بدأنا ندرك أن البيت يحترق. كان البعض منا لا يريد أن يستجيب لما كان يسمع، شأننا شأن ذلك الذي قيل له إن بيته يحترق فرد: «الفتاح في جيبه!»

❖ ❖

كأنني بك في هذا الكتاب، وفي كتاب لك آخر سبقه (آية حياة هي)، كمن يريد القول: هذه هي الحياة التي حييت، أنا الكاتب الذي كرست عمري للكتابة، فكتبت أعمالاً عديدة توزعت بين القصة والرواية والشعر و«عبث الحياة» أحياناً، وإن ما أكتبه اليوم ليس اهتماماً أدبياً جديداً بقدر ما هو كشف للمستور. فبعد أن لعبت كل الأدوار مع أبطالي، لماذا لا ألبس الدور هذه المرة مع نفسي؟

لقد جمعت تشظيات تلك الحياة من عالم مدمر، هو عالم الشخصيات في حقبة عسيرة من حقب العمر، حتى بدت في اجتماعها وكأنها عالم أشباح لا يسهل الركون إليه وتصديق ما يجري فيه، فكيف باحتماله؟! وتحت هذا الضوء القاسي، والساخر أيضاً، أعدت صياغة واقع تتساءل اليوم أمامه بمزيد العجب: كيف عشناه فاحتملناه؟

ولكن ماذا عنا اليوم؟ ربما تساءلت عن ذلك غير مرة، وأنت تعيش في مغرب الوطن، فأقول لك: لقد حلّ الليل في بيوتنا والدروب. ولكن هل استسلمنا لما نحن فيه؟ لقد علمتنا الكتابة أن هناك صيغاً متعدّدة للحياة واللغة؛ فليست «لغة الليل» وحدها التي يُمكن أن تكون، وإنما هناك لغات أخرى علينا أن نحشدنا بالحياة. فلغة الكثير الذي تريد اليوم أن تقول، وما تقول لا بد أن يكون جوهرياً بالنسبة إلى التاريخ. ولذلك ينبغي أن نقول ونكتب دون أن نأبه لهذه الأحجار التي رامها الغرباء عن حياتنا وتاريخنا في الطرقات لتصدنا عن المسار!

بغداد

العمل وقد انبعثت من ذلك كله، أنت الذي حاولت الخروج من أسطورة انطوت على رؤى محطمة، حتى أصبح القبض على رؤيا بحجم ما عاش الواحد منا من أحلام مسألة صعبة. وما من يقين إيجابي، بل أصبح كل ما حولنا مثاراً للرعب، ودافعاً للهرب نحو غربة ذاتية تلتهم كل التطلعات. هكذا لم نعد نمسك بالكلمات كما ينبغي، وصار إحساسنا بالمكان ضعيفاً. ولم يَضَعْنَا هذا في بحث لا ينتهي، وإنما ألقانا إلى تيه لم نعرف له حدوداً، فإذا بنا نجر الحياة وراءنا بدلاً من أن تندفع بنا إلى أمام.

أجد هذا كله في نسق عباراتك المهشّم، في انسيابها وسقطاتها، وفي تسارعها وهي تغالب وصف ما يحدث. أحياناً تحترق «رخاوة» أشكال الكتابة، وأحياناً تستسلم للانكسار الداخلي. وكما أدخلتنا في أعماق حياتك، أدخلتنا في أعماق حيوات الآخرين. كنت منفياً في ذاتك والخارج، وعبارتك هي الأخرى. وكنت تقع على هذه العبارة علّك تجد فيها ما يعيد التوازن إلى حياتك المستتبّة، ولكنها في أكثر المرات كانت تذلك لفرط ما يتعالى منها من نحيب.

هنا أفهم قصدك وأنت تصوّر ما حدث بفجأته وقسوة معناه. ربما كنت تدرك وأنت تفعل هذا أن القبض على الانفعال لا يكون إلاً بإثارته. وكتبت بصوت عالٍ بعد أن وجدت أن الصوت الخفيض لم يعد مجدياً. فضربت في كل اتجاه، وكشفت عما قد لا ينبغي الكشف عنه، وبطريقة ينقصها «الأدب» أحياناً، مندفعاً نحو نهايات وجدت - بعد أن أصبحت بعيداً في المكان والزمان - أن البوح بها أصبح ممكناً.

لماذا تكتب هذا وأنت/ نحن ندرك أن ليس في مقدورنا أن نعيد خلق الواقع من جديد لِنُنتج منه ما نريد؟ فعلى الرغم من أننا كنا قرأنا عند من كتبوا قبلنا الخيبة ذاتها، فإننا لم نأخذ عنهم شيئاً من العبرة والتجربة، فغصنا في أحوال الزمن كما غاصوا!

لقد كانت لكل منا «أساطيره»، إلا أننا فوجئنا بها وقد امّحت، وبشكلٍ موهج. كنا نريد لأنفسنا دور الريادة في جيلنا، وقد أعدنا أنفسنا لذلك بقدراتنا الذاتية. فإذا بنا نجد أنفسنا موضوعين في عداد العابرين!

هنا بدأت المدينة، التي كانت الحياة فيها حلمنا الجماعي، تفقد بعدها ومعناها وتتلاشى ظلالها في نفوسنا. صرنا نراها وكأنها لا شكل لها بفعل ما لحقها من تشويه من الداخل. فماذا تفعل